أبو الطّيّب المُتنبّى

هـــل ادعى النبوة حقا ؟

بقلم على النجدى ناصف

مفتش المعارف بعلوى

خرج المتنبى إلى البادية وهو فى الشام ، كما خرج إليها وهو فى العراق ، لكنه كان فى بادية العراق طالبا ليس غير ، يريد أن يتضلع من اللغة ، ويتمرس بأسباب البيان . أما فى بادية الشام فيعزى إليه ـ من روايات وأقاويل يشوبها الغموض والاضطراب ـ أنه كان طالبا ، وكان متنبئا أيضا ، استطاع ببعض الحيل أن يفتن خلقا كثيرا ؛ فاستجابوا له ، وخرجوا معه ينافحون عن دعوته . ودونك بعض تلك الروايات والأقاويل :

قال صاحب الصبح المنبى قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقى : قدم أبو الطيب المتنبى اللاذقية فى سنة عشرين وثلثمائة ، فلما تمكن الأنس بينى وبينه قلت له : والله إنك لشاب خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير ؛ فقال : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبى مرسل ؛ فقلت له : مرسل إلى من ؟ فقال : إلى هذه الأمة الضالة ؛ فقلت : ذكرت أنك نبى مرسل إلى هـذه الأمة ، أفيوحى إليك ؟ قال : نعم ؛ قلت : فاتل على شيئا مما أوحى اليك . فأتانى بكلام ما مر بسمعى أحسن منه . قلت : أسمع فى هذه العبارات أن لك طاعة فى السماء ، فماهى ؟ قال : أحبس المدرار ، لقطع أرزاق العصاة والفجار ؛ فإن حبست المطر عن مكان تنظر إليه ، ولا تشك فيه هل تؤمن بى ؟ قلت : إى والله ؛ قال : سأفعل .

فلما كان بعد أيام تغيمت السماء فى يوم من أيام الشتاء، وإذا عبده قد أقبل، فقال: يقول لك سيدى: اركب للموعد. فبادرت إلى الركوب معه، وقلت: إلى أين ركب مولاك؟ قال: إلى الصحراء. واشتد وقع المطر، فقال: بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى، فإنه ينتظرنا بأعلى تل لا يصيبه فيه المطر. فأتيت إليه، فإذا هو على التل، ولم يصبه من ذلك المطر شىء، وقد خضت فى الماء إلى ركبة الفرس، والمطر فى أشد ما يكون. فسلمت عليه فرد على السلام، فقلت: ابسط يدك أشهد أنك رسول، فبسط يده، فبايعته بيعة الإقرار بنبوته، وأخذت بيعة لأهلى. ثم صح بعد ذلك أن البيعة عمت كل مدينة فى الشام. ولما اشتهر أمر المتنبى، وشاع ذكره، وخرج بأرض سَلَمية من عمل حِمْص فى بنى عدى، قبض عليه ابن على الهاشمى فى قرية يقال لها: «كوتكين» وأمر النجار أن يجعل فى رجله وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف [1].

وهذه القصة — إذا لم يكن بد من النظر فيها، والإغضاء عن خرافاتها — تنطوى على أشياء مريبة، تدعو إلى الشك فى صحتها، فهى تفيد أن دعوة المتنبى نبتت فى اللاذقية، ثم امتدت إلى سائر بلاد الشام. والمفهوم من الروايات الأخرى — وهى كثيرة — أن الدعوة بدأت وانتهت فى البادية كما سيأتى. على أن مثل هذه الدعوة إذا أمكن أن يستجيب لها أهل البادية، فلا يرجى أن يستجيب لها أهل المدن، وبخاصة أن صاحبها غلام بائس غريب، لا يكاد الناس يعرفون من أمره شيئا مذكورا. ثم إن حدوثها فى المدن أجدر أن يسرع بنبئها إلى آذان الولاة وأصحاب السلطان فى دولة فتية كدولة بنى الإخشيد يومئذ [2]. فيعاجلوها بعزيمتهم

(١) الصبح المنبى: (١ : ٢٥ — ٣٤) بعض الاختصار.

(٢) سيأتى أن خروج المتنبى كان فى عصر الدولة الاخشيدية لا قبله.

الحاسمة ، ويقضوا عليها قبل أن تدرج من مهدها .

وأخرى تفيدها هذه القصة :أن المتنبي كان إذ ذاك فى سعة ويسر ؛ إذ كان لديه عبد يقوم على خدمته . والناس مجمعون على أن أسرة المتنبي كانت رقيقة الحال ، وأن المتنبي لم يزل فى عسر وضيق إلى ما قبل اتصاله بسيف الدولة بقليل . ومع ذلك ، إذا نحن جردنا القصة من هذه الشوائب وجدناها تدل بجوهرها على أكثر ماتدل عليه الروايات الآتية من الوقائع . فلنتركها الآن جانبا ، ولنستعرض أقوال بعض الرواة الآخرين .

قال البغدادى : وقد كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ، ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة . ثم عاد يدعى أنه علوى ، إلى أن أُشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعويين ، وحبس دهرا طويلا ، وأشرف على القتل . ثم استتيب وأُشهد عليه بالتوبة وأطلق .

أخبرنا التَّنُوخيّ حدثنى أبى قال حدثنى أبو على بن حامد قال :

سمعت خلقا بحلب يحكون — وأبو الطيب المتنبى بها إذ ذاك — : أنه تنبأ فى بادية السماوة ونواحيها ، إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأنفره ، وشرد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن حبسا طويلا ؛ فاعتل ، وكاد أن يتلف ، حتى سئل فى أمره فاستتابه (١) .

وقال الثعالبى : وبلغ من كبر نفسه ، وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوما من رائشى نبله ، على الحداثة من سنه ، والغضاضة من عوده . وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والى البلدة ، ورفع إليه ما هم به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده . ويحكى أنه تنبأ فى صباه ، وفتن شرذمة بقوة أدبه ، وحسن كلامه (٢) .

(١) تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) أبو الطيب المتنبى وأخباره : ٨ ، ٩ .

وقال ابن خلكان : وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة ، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية ، فأسره ، وتفرق أصحابه ، وحبسه طويلا ، ثم استتابه وأطلقه[1] .

وقال الأنباري : وكان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي ، ثم ادعى النبوة . ثم عاد يدعي أنه علوي ، إلى أن أشهد عليه في الشام بالتوبة وأطلق وهنا أورد الأنباري حديث أبي علي بن حامد المار ذكره في رواية البغدادي[2] .

وإذا أنت قابلت هذه الروايات بعضها ببعض رأيتها متفقة الدلالة على أن أبا الطيب ادعى النبوة في بادية السماوة ونواحيها ؛ فقبض عليه ، وحبس حينا ، ثم عفى عنه ، وأخلى سبيله ، إلا أن رواية الثعالبي - فضلا عن ذلك - تفيد أنه دعا إلى بيعته جمعا من أترابه ، ولكنه قبض عليه قبل أن يتم أمر دعوته . ولسنا ندري على التحقيق ماذا يريد الثعالبي بذلك . أيريد أن المتنبي خرج مرتين : مرة لطلب الرياسة والملك ، وأخرى لدعوة الناس إلى الإيمان بنبوته ، فيكون من أجل ذلك حبس مرتين ؟ أم يريد أن المتنبي لم يثر إلا لطلب الملك ، لكن بعض الناس تقولوا عليه الأقاويل . ونسبوا إليه زورا أنه ادعى النبوة ؟ إننا نستبعد أن يريد الأول ، وإن كان البغدادي والأنباري كلاهما يذكر أن المتنبي انتسب إلى العلويين مرتين ، مما يمكن أن يفهم منه بادي الرأي أن إحداهما كانت تمهيدا للتنبؤ ، والأخرى كانت تمهيدا للخروج في طلب الرياسة والسلطان . نعم نحن نستبعد ذلك بالرغم مما ترى ؛ لأنه ليس لدينا من الأنباء الصريحة ،

(١) وفيات الأعيان : ١ : ٤٥ .
(٢) طبقات الأدباء : ٣٦٨ .

ولا من شعر الشاعر فى الحبس ما يفيد أنه حبس أكثر من مرة واحدة . فإن كل ما قاله فى هذا الشأن بيتان فى الهاشمى إذ قبض عليه فى كوتكين ، وأربعة أبيات يهزأ فيها بالحبس وآلامه حين توعده السجان بالبقاء فيه ، ومقطوعة وقصيدة يستعطف الوالى بهما .

وشىء آخر تتفرد به رواية الثعالبى من بين سائر الروايات التى أوردناها هنا ، ذلك أنها تفيد أن المتنبى لم يخرج ، وإنما أراد الخروج ، وأعد له عدته ، ولكن لم يتم له ما أراد . وتفرد الثعالبى بوصف حادث المتنبى هذا الوصف لا يكفى وحده للغض من روايته ، وترجيح غيرها عليها ، ولا سيما إذا رجعنا إلى قول الشاعر فى استعطاف الوالى :

وكن فارقابين دعوى أردتُ ودعوى فعلتُ ، بشأو بعيد

أليس هذا القول مما يمكن الاستدلال به على أن المتنبى ما زاد على أن هم بالخروج ؟ فكيف إذا لحظنا المألوف من الوالى حين يظفر بالثائر وقد عظم أمره ، وبلغ من التمرد مبلغ المتنبى فى ثورته ، كما يصفها الرواة سوى الثعالبى ؟ أليس المعروف أن الوالى حينئذ يحمل الثائر إلى السلطان فيقر عينه ، ويدخل السكينة فى قلبه ، ويدع لمولاه النظر فى أمر عدوه ، وتعيين المصير الذى يختاره له ؟

فياليت شعرى أكان حادث المتنبى - كما يصفه الثعالبى - عزما على الخروج ، وتحفزا له ليس غير ؟ فلذلك تصرف لؤلؤ فى أمره ذلك التصرف الذى مر بك نبؤه ، أم كان الحادث كما يصفه سائر الرواة ثورة حمى وطيسها ، وكاد يستشرى شرها ، ولكن لؤلؤا مع ذلك رأى أن الاكتفاء بحبس زعيمها بعد أن فرق أعوانه حقيق أن يزجره ، ويقضى على مطامعه ، لحداثة سنه ، وفقدان العصبية من قومه وعشيرته ؟

من رأيى أن الأمر لم يكن ليحدث كل هذا الدوى من تاريخ الشاعر ولا ليظفر من الرواة بهذا الإجماع على ذكره ، لو كان مجرد عزم واستعداد .

ثم إن وقوعه فى البادية بمعزل عن الرقباء وأعوان السلطان ، مما يتيح للمتنبي إعداد العدة ، ويملى له حتى يجمع جموعه قبل أن يبلغ خبره مسامع أولى الأمر . وأما اعتذاره إلى الوالى بأنه أراد ولم يفعل فهو - فيما أظن - اعتذار المذنب يخشى مضاعفة العقاب من الإقرار بالذنب ، ويرى أن الإنكار محاولة لا غناء فيها ، وأمل لا سبيل إليه ، فيقف بين بين ؛ لعل هذا القدر من الصدق يشفع له ، أو يخفف عنه .

ثم إذا أنت قابلت هذه الروايات مرة أخرى برواية البديعى المار ذكرها تبينت أن رواية البديعى تقرر أن الذى قبض على المتنبي هو ابن على الهاشمى ، وأن سائر الروايات - خلا رواية الثعالبى - تقرر أن الذى قبض عليه هو لؤلؤ والى حمص للدولة الإخشيدية . وربما لا تكون هناك فى الواقع منافاة بين هذا أو ذاك ؛ فلعل المتنبي فر إلى كوتكين واستخفى فيها حين هزمه لؤلؤ ، وفض الناس من حوله ، فقبض الهاشمى عليه ، وجاء الوالى به فألقاه فى غيابة السجن . يؤيد ذلك رواية المعرى أنه كان استخفى فى اللاذقية أو غيرها من السواحل ،[1] إذا صح أن كوتكين كانت على الساحل ، فإنا لم نعثر عليها فى جميع المظان التى رجعنا إليها ، وافتقدنا عندها مكانها .

هذه طائفة من الروايات تمثل آراء القدماء فيما سموه نبوة المتنبي ، تناولنا بعضها بالنقد وبعضها بالتأويل . والآن نريد أن نتعرَّف تاريخ هذه النبوة وأن نذكر كلمة عن البيئة التى ظهرت فيها ، تقرِّب موقعها إلى الذهن ، وتكشف بعض الشىء عن القبائل التى استجابت لدعوة الشاعر ، على قدر ما تتسع له الطاقة ، ويسعف به الاستدلال ، ثم نتقدم بالرأى الذى نعتقده فى هذا الحادث المشهور .

(١) رسالة الغفران : ٢ : ٢٩ .

تاريخ النبوة :

رأيت فيما تقدم أن الرواة يكادون يجمعون على أن الذى تولى قتال المتنبى ، وتشتيت أنصاره ، هو لؤلؤ أمير حمص من قبل الدولة الإخشيدية . إذًا نستطيع أن نقرر أن المتنبى لم تظهر دعوته ، ولم يقبض عليه قبل سنة ٣٢٣ ؛ لأن الدولة الإخشيدية لم تقم إلا فى هذه السنة (١) ، ثم إن المتنبى كان فى الكوفة سنة ٣٢٥ ، فيما يقول الناشئ الأصغر (٢) ، وعاد منها إلى الشام سنة ٣٢٦ ، فيما يفهم من كلام المعرى (٣) والعُكْبَرِى . وفى سنة ٣٢٨ دخلت حمص مع غيرها من بلاد الشام فى حكم ابن رائق (٤) ، وحمص هى المدينة التى خرج لؤلؤ أميرها من قبل الإخشيدية لقتال المتنبى كما سبق . فهل كان ظهور أمر المتنبى والقبض عليه بين سنتى ثلاث وعشرين ، وخمس وعشرين ، أو فى المدة بين سنتى ست وعشرين ، وثمان وعشرين ؟ إننا إذا رجعنا إلى كلام الثعالبى المتقدم ذكره رأيناه واضح الدلالة على أن كلا من طلب البيعة ، وادعاء النبوة وقع فى أيام صباه ، ثم إذا رجعنا إلى الشاعر نفسه فى القصيدة التى استعطف الوالى بها حين حبسه ، وجدناه يصرح أنه كان يومئذ حدثا لم تجب عليه الصلاة بعد ، قال :

تعجِّلُ فىَّ وُجُوب الحدُود وحَدِّى ، قَبِيْلَ وجُوب السجود

ولا شك أن المتنبى فى نحو العشرين من عمره ، أى فيما بين سنتى ثلاث وعشرين وخمس وعشرين ، يكون أقرب إلى الحداثة ، وأشبه بالصبيان منه فى نحو الثالثة والعشرين ، أى فيما بين سنتى ست وعشرين وثمان وعشرين . نعم ، قد يكون صغر السن فى القصيدة المذكورة إلى هذا الحد مجرد دعوى

(١) النجوم الزاهرة : ٣ : ٢٥١
(٢) معجم الأدباء : ٥ : ٢٣٩ — ٢٤٠
(٣) رسالة الغفران : ٢ : ٣٠
(٤) التبيان : ٢ : ٣٠٧

ادعاها الشاعر ، وبالغ فى تصويرها ، ليقنع الوالى أن غلاماً مثله لا يظن اجتماع الناس حوله لتنبؤ أو خلاف [١] . ولكن هيهات أن يلجأ الشاعر إلى هذا الأسلوب فى الاستعطاف إلا إذا كان له من سنه ، ومن ظواهر الحداثة البادية عليه شاهد يؤيد دعواه ، ويدعو إلى تصديقها ، وإلا ذهب استعطافه جُفاء لا قيمة له ولا أثر ، الا السخرية والإنكار . ذلك إلى أن المتنبى اتصل بدر بن عمار سنة ٣٢٨ [٢] ، إذ كان يتولى حرب طبرية من قبل ابن رائق ، وبدر هذا من أشهر الممدوحين الذين اتصل المتنبى بهم قبل سيف الدولة ، وتقدمت به الأيام على أيديهم . والمعروف أن الشاعر بعد خروجه من السجن قضى فترة كان فيها خامل الذكر ، كاسد الشعر [٣] . والمدة بين سنتى ست وعشرين ، وثمان وعشرين أجدر ألا تتسع من جهة للحبس الذى يصفه الرواة بأنه كان طويلا ، ومن جهة أخرى للفترة التى كان يمدح فيها كل من يصادفه كائناً من كان ، أو كما يقول الثعالبى : يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركى والعندليب [٤] .

فلهذا كله نرجح أن شيوع أمر المتنبى والقبض عليه وقع كلاهما وهو فى نحو العشرين من عمره ، أى فيما بين سنتى ثلاث وعشرين وخمس وعشرين .

وسواء أكان هذا أم ذاك ، لا نستطيع أن نفهم قول بعض [٥] الرواة : إن المتنبى حبس حبسا طويلا ؛ ولا قول البعض [٦] الآخر : إنه حبس

(١) أبو الطيب المتنبى وأخباره : ص : ٩
(٢) أبو الطيب المتنبى ، لكمال حلمى بك : ٣٦
(٣) الصبح المنبى : ١ : ٤٣
(٤) أبو الطيب المتنبى وأخباره : ١٢
(٥) البغدادى ، وابن خلكان .
(٦) الأنبارى .

دهراً طويلا ؛ لأن المدة التى حبسها على كلا الاحتمالين لا تزيد على عامين اثنين ، وقد نقل عنهما - ولا جرم - أن حبس العامين لا يستقيم وصفه بالطول ولا يصح أن يقدر بدهر ، بله « دهرا طويلا » ، إلا إذا فرضنا أن الرواة كانوا يصدرون فى ذلك عن شعور السجين نفسه . ويصورون المدة التى حبسها كما تتمثل له ، لا كما تبدو فى عالم الحقيقة والواقع .

السماوة :

وأما السماوة فيقول عنها ياقوت : « . . . والسماوة ماءة بالبادية ، وكانت أم النعمان سميت بها ، فكان اسمها ماء ، فسمتها العرب ماء السماء ، وبادية السماوة التى هى بين الكوفة والشام . . . أظنها مسماة بهذا الماء » . ويقول العكبرى : والسماوة : فلاة بين الشام والعراق [1] . وقد أشار المتنبى إلى موقعها فى قوله :

تركنا من وراء العيس نجداً ... وتكبيناً السماوة والعراقا

فما زالت ترى والليل داج ... لسيف الدولة الملك ائتلاقا

وألم بكثير من بقاعها فى القصيدة التى أنشأها . وقد أوقع سيف الدولة ببنى كلاب ، وبنى عقيل ، وبنى العجلان ، وغيرهم . وبنو كلاب هم ممن نزل عليهم المتنبى ، وخرج فيهم . قال :

تثير على سلمية مستطيراً ... تناكر تحته لولا الشعار

وسلمية : بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة ، بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص [2] . وقال :

غطا بالغنثر البيداء حتى ... تخيرت المتالى والعشار

والغنثر : واد بين حمص وسلمية بالشام [2] . وقال :

(١) شرح التبيان : ١ : ٤٢٣ .

(٢) معجم البلدان لياقوت .

وَمَرُّوا بالجُبَاةِ يَضُمُّ فيها كلا الجيشين من نَقْعٍ إزارُ

والجباة : ماء بالشام بين حلب وتدمر [١] . وقال :

وليس بغير تَدْمُرَ مُسْتَغَاثٌ وتَدْمُرُ كاسمها لهُمُ دَمَارُ

وتدمر : مدينة قديمة مشهورة ، فى برية الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام [١]

وأما القبائل التى خرج فيها المتنبى فهى - كما يفهم من كلام الرواة - بنو كلب ، وبنو كلاب ، وبنو عدى . وفى بنى كلب يقول صبح الأعشى : وبنو كلب حى من قضاعة . قال صاحب حماة : وكان بنو كلب فى الجاهلية ينزلون دومة الجندل ، وتَبُوك ، وأطراف الشام . قال ابن سعيد : ومنهم الآن خلق عظيم على خليج القسطنطينية مسلمون . قال فى مسالك الأبصار : وبشيزر ، وحلب ، وبلادها ، وتدمر ، والمناظر ، أقوام منهم [٢] .

ويقول فى بنى كلاب : ومن بنى عامر بن صعصعة بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكان لهم فى الإسلام دولة باليمامة ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى الشام ، فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت ، وملكوا حلب ، ونواحيها ، وكثيرا من مدن الشام ، ثم ضعفوا [٣] .

ويقول فى بنى عدى : وهم بنو عدى بن كعب ، ومنهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، وسعيد بن زيد ، أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وذكر صاحب مسالك الأبصار : أن من العمريين ببلاد الشام فرقة بوادى بنى زيد ، وفرقة بعجلون [٤] .

وسنحدثك فى العدد القادم عن بقية البحث إن شاء الله تعالى .

على النجدى ناصف

(١) معجم البلدان لياقوت .
(٢) صبح الأعشى : ١ : ٣١٦ .
(٣) صبح الأعشى : ١ : ٣٤٠ .
(٤) صبح الأعشى : ١ : ٣٥٣ ، ٣٥٤ .